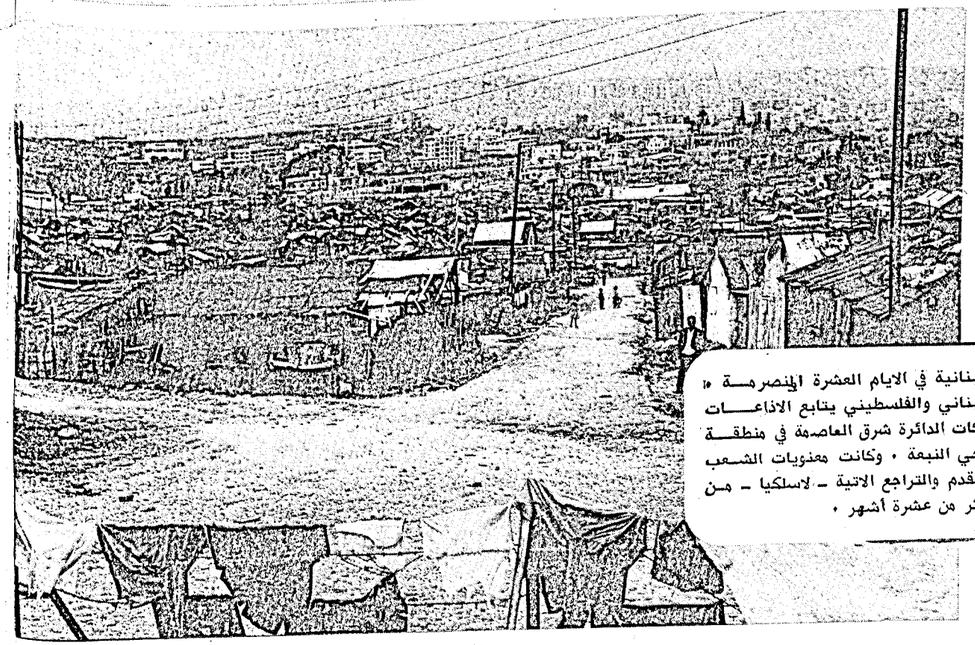

كان تل الزعتر عنوان الازمة اللبنانية في الايام العشرة المنصرمة ، وساعة بعد ساعة كان المواطن اللبناني والفلسطيني يتابع الاذاعات والنشرات ليعرفة تطورات الاشتباكات الدائرة شرق العاصمة في منطقة مخيمي تل الزعتر وجسر الباشا وحي النبعة . وكانت معنويات الشعب تتأثر ، ايجابا وسلبا ، بأخبار التقدم والتراجع الاتية - لاسلكيا - من « مثلث الصمود » المحاصر منذ أكثر من عشرة أشهر .

تل الزعتر

يوميات مثلث الصمود

نجابه حديدهم بلحمنا ..حتى اخر قطرة دم

وبالنسبة لليمين كان الهجوم على - المثلث - الفلسطيني - اللبناني أكبر مجهود عسكري يقوم به منذ بدء الحرب الاهلية . ويأمل اليمين في أن يشكل تعرضه للمخيمين ولحي النبعة حاقة متقدمة تتيح للانظمة العربية المتضامنة أن تفرض وصايتها على المقاومة وحركة الجماهير اللبنانية .

واذا كانت المعركة ما تزال دائرة ، والوقت مبكرا لكتابة قصة صمود المثلث الواقع شرق العاصمة ، فان نتف المعلومات والبرقيات اللاسلكية المتبادلة بين الصامدين في المخيمين وقيادة المقاومة ، والبلاغات العسكرية الصادرة عن الجانبين الوطني واليميني تتيح اعطاء صورة أولية عن معركة الصمود المستمرة ..

قبل حوالي الشهرين أفاد بلاغ صادر عن حزب الكتائب الفاشي أن ميناء جونيه سوف يقفل لمدة ثلاثة أيام من أجل اعادة ترتيب أوضاعه الادارية . ولكن المعلومات التي تسربت من منطقة كسروان أفادت أن حجة ترتيب الاوضاع الادارية استهدفت اخفاء نبأ اقفال المرفأ أمام المسافرين المدنيين من أجل تفريغ شحنة كبيرة من السلاح كانت تضم ما يزيد على ٦٠ دبابة - ام اكس - ومقادير من المدفعية والصواريخ والذخائر .

وبعد أسابيع قليلة تسربت أنباء أخرى عن نقل - لواء المردة - الزغرتاوي و - لواء عكار - اللذين يضمان عدة مئات من جنود الجيش القديم الى ضواحي بيروت .

الحشد

وكان الخبران بمثابة خطوات أولى نحو الهجوم على مخيمي تل الزعتر وجسر الباشا وحي النبعة الذين يشكلون جيبا وطنيا كبيرا ضمن المنطقة الخاضعة لسيطرة اليمين . فقد أفادت الانباء اللاحقة أن حشدا من المسلحين يضم القوات المذكورة ومعها مقاتلين من حزب الاحرار وحراس الارز ، والشبيبة اللبنانية ، ومن قوات بركات - التي انشقت عن الجيش القديم - ، الى جانب مقاتلي الكتائب الذين ماطلوا قبل الاعتراف بمشاركتهم - ان هؤلاء جميعا يضربون حصارا حول مخيمي تل الزعتر وجسر الباشا وحي النبعة تمهيدا لمهاجمتها . وأكدت الانباء ان المسلحين ، الذين يبلغ عددهم بضعة الوف - ٤٠٠٠ الى ٨٠٠٠ حسب معلومات متضاربة - يتمتعون باسناد مدرع يتجاوز ١٣٠ آلية من دبابات ومصفحات وطلاات .

حلف الفقراء

في الطرف المقابل يقف حوالي ١٥ ألفا من فقراء الشعب الفلسطيني الذين يعيشون في مخيمي الزعتر والباشا - ومعظم سكان المخيم الاخير من المسيحيين - ، ويحيط به حزام بشري أوسع حجما ، وان كان مشابها من حيث الانتماء الطبقي المسحوق ، من لبنانيي الارياف الجنوبية والبسلبكية الذين قذفت بهم لقمة العيش الى أكواخ التنك في ضواحي العاصمة وجوار المخيمات الفلسطينية .

ويمتاز أبناء المنطقة من فلسطينيين ولبنانيين بوعيهم الطبقي المتقدم الذي صقله العمل في المصانع المنتشرة بكثرة في المنطقة ، وبحسهم القومي والنضالي الرفيع الذي اكتسبوه عبر الانتماء للمقاومة والاحزاب ، وعبر سنوات الصدام مع اسرائيل والسلطة الرجعية . واذا كان الطرف الرجعي يعتمد على آلياته ومدفعيته وسهولة امداده ، فان جماهير - مثلث الصمود - تعتمد على نوعية مقاتليها واستعداداتهم في الدفاع وادراكهم ان خسارة المعركة تساوي ابادتهم على أيدي اليمين الفاشي .

كيف جرى القتال ؟

كانت القوات المهاجمة تحيط بالمخيمين المتجاورين من عدة جهات : من منطقة المكلس المنصورية الى الشرق ، ومن الدكوانة الى الشمال ومن حرج ثابت - تحويطة فرن الشباك الى الغرب والجنوب الغربي ومن الحازمية الى الجنوب . ويتصل المحور الاول بمخيم تل الزعتر مباشرة في حين يقترب المحوران الثالث والرابع أكثر من مخيم جسر الباشا .. وقد عمدت القوات المهاجمة الى التمهيد للهجوم بقصف مدفعي وصاروخي ، هاون ١٢٠ و ١٦٠ ومدافع ١٥٥ ملم ، كثيف جدا ، قدرت بعض الصحف ان تعداده في الايام الخمسة الاولى كانت ١٠ الاف قذيفة . وفي الجانب الاخر كانت مدفعية المخيمين تقصف التجمعات المعادية ، وان كان معظم القصف الوطني يتم من خارج المنطقة المحاصرة ، أي من بيروت الغربية وضواحيها ، ومن خلده حيث يتمركز جيش لبنان العربي .

وكان زخم الهجوم في الايام الاولى يتركز في منطقة المكلس - منطقة المصانع - المشرفة على مخيم تل الزعتر . وقد توالت الهجمات على هذه المنطقة خلال الايام الاولى من غير أن يحرز اليمين ثمارا ملموسة . وفي يوم الخميس ٢٤ حزيران أفادت البرقيات الواردة من تل الزعتر ان معظم مصانع المنطقة تحترق بفعل القصف ، وان قوات اليمين أخرجت من أحد الجيوب التي كانت احتلتها في المنطقة نفسها . وأضافت البرقيات ان مقاتلي المخيم يشنون هجمات مضادة لتثبيت قوات الخصم .

وشهد هذا اليوم تصعيدا كبيرا في الهجوم اليميني . فقد دفعت القوات اليمينية كامل احتياطها الالي والبشري بعد أن أعلن كميل شمعون - وزير الداخلية - ان اليوم التالي سيشهد نهاية تل الزعتر ! وهكذا زج ٥٠٠ عنصر اضافي و ٣٠ آلية أخرى في الهجمات التي استهدفت منطقة المكلس . وخلال هذا الوقت كان مطر القذائف ينهمر بقوة على المخيمين ومعهما حي النبعة . وشهد اليوم نفسه عشرات الهجمات المحدودة التي شنها مقاتلو النبعة تخفيفا للضغط عن المخيمين . كما لجأت القوات الوطنية في مناطق بيروت الاخرى الى عمليات محدودة مماثلة .

معارك الجمعة : ذروة الهجوم

وكان اليوم التالي - وهو اليوم الرابع للمعركة - ذروة الهجوم على تل الزعتر . فقد دفعت قوات اليمين جميع قواتها المقاتلة والاحتياطية على محور المنصورية - المكلس تحت غطاء من القصف المدفعي في محاولة للتقدم الى - البرج العالي - الذي يكشف مخيم تل الزعتر ويضعه تحت مرمى النيران المباشرة . وبالفعل وصلت هذه القوات الى مشارف البرج في التاسعة مساء بعد أن تكبدت خسائر قدرت بـ ٥٠ قتيلا و ١٠٠ جريح اضافة الى تدمير ٤ دبلات و ٦ سيارات حاملة مدفعية . ولكن قوات اليمين المتقدمة لم تستطع التمركز في المنطقة لشدة الحرائق . من جهتها ظلت القوات المشتركة تحتفظ بمنطقة المصانع في حين ضربت طوقا حول البرج العالي لمنع تقدم قوات اليمين منه ، وأخذت تشن هجمات مضادة لمنع الخصم من التمركز في المنطقة التي احتلها .

وهكذا يمكن القول ان اليمين أحرز تقدما محدودا في هذا اليوم ، ولكنه ظل بعيدا جدا عن الهدف الذي حدده شمعون : اسقاط المخيم .

الكتائب تسفر عن وجهها

شهد يوم السبت اشتداد وطأة القتال في منطقة المكلس . وقد احتلت قوات اليمين اثناء النهار عددا من المصانع في المكلس ولكن القوات المشتركة ردتها على أعقابها في فترة بعد الظهر والمساء . وخلال ذلك كانت المعارك تحتدم في كل أنحاء العاصمة وضواحيها وفي الجبل بقصد مشاغلة اليمين وتخفيف الضغط عن المخيمين . وتزايد الهجوم حدة نهار وليل الاحد ، وشمل كل محاور القتال . وفي هذا اليوم أعلن حزب الكتائب عن مشاركته في المعركة - بعد أن ادعى العكس في الايام الاولى - ، وادعى احتلال - تلة المير - المشرفة على المخيم . والثابت أن المخيمين كانا يصدان هجمات كثيفة ومنسقة من الجهات الاربع .

كان يوم الاثنين مطلع الاسبوع الثاني للقتال . وفي هذا اليوم أعلن كمال جنبلاط ان كتيبة الاستطلاع ٣٢٤ من الجيش السوري تشترك مع قوات اليمين في الهجوم على مخيمات الفلسطينيين . وقد أعلن المخيمان انهما قررا الصمود حتى النصر أو الشهادة - ووجها نداء الى جيش التحرير الفلسطيني للتدخل ولضرب الطوق حول الخارج . وكان واضحا ان المخيمين يتعرضان لضغوط شديدة . وان مخيم جسر الباشا دخل مرحلة خطيرة . فاغلب المقاتلين جرحى ، وهنالك نقص في الذخائر . ولا يوجد علاج . وفي المساء دخلت قوات اليمين المنطقة المحاذية لمخيم جسر الباشا وبدأت باحراق المخيم نفسه .

وتابعت قوات اليمين هجومها في اليوم التالي ، خاصة وان المخيمين ظلا يقاتلان بدفردهما وبدون أن يحصلا على دعم فعلي من قوات المقاومة الموجودة خارج المنطقة . وهكذا أعلن في يوم الثلاثاء عن سقوط مخيم جسر الباشا بعد سقوط ١٠٠٠ قتيل في القتال حسب وكالة الصحافة الفرنسية . ولكن المقاومة في هذا المخيم الصغير ظلت مستمرة حتى ما بعد منتصف الليل وكانت بقايا القوات الفدائية تقاتل - من بيت لبيت ومن شجرة لشجرة - حسب ما ورد في اخر البرقيات .

وبالنسبة للزعتر : كان الهجوم على منطقة المكلس يزداد وطأة ، وبدا أن قوات اليمين تحرز تقدما اخر يتيح لها توسيع المنطقة التي اخترقتها والتقدم على جبهة عريضة .

الزعتر : « نحن أخذنا قرارنا »

في اليوم التاسع - الخميس - سقط مخيم جسر الباشا نهائيا . وتعرض تل الزعتر لهجوم شرس من خمسة محاور . ولجأت قوات اليمين للحرب النفسية فوجهت انذارا للزعتر بالاستسلام ورفع الاعلام البيضاء . وكان جواب المخيم : في برقية الى القيادة المركزية للمقاومة والاحزاب : « نحن هنا أخذنا قرارنا ، وهو قرار نهائي . اننا نناضل حتى اخر قطرة من دمائنا .. وجماهيرنا هنا لها أمل كبير في أن تستطيعوا الوصول اليها لافشال مخطط أعداء شعبنا اللبناني والفلسطيني سواء منهم الانعزاليون او حكام دمشق » . وبعد ساعات وجه قائد موقع تل الزعتر برقية الى القيادة جاء فيها : « نكرر عليكم الطلب لانجاد هذا المخيم » .

المعركة مستمرة : سنجابه حديدهم بلحمنا !

حتى نهار الجمعة كانت الانباء الواردة من تل الزعتر تفيد ان القتال يشتد وطأة ، وانه صار أقرب الى المخيم نفسه ورافق هذا التطور ازدياد الاشتباكات القريبة المدى وبالاسلحة الخفيفة والمتوسطة . ويبدو ان المخيم يقاتل بشراسة وعنف .. وابداع .. فلم تتوقف الهجمات المضادة من المخيم رغم شدة الضغوط . وسجلت عمليات تسلل الى المنطقة التي احتلها الخصم نجم عن احداها اصابة « مسؤول كتائبي كبير » كان آتيا لرفع علم حزبه النازي . وكان خير ما يعبر عن الموضع في المعركة المستمرة برقية وردت في الرابعة بعد الظهر : « اننا نجابه حديدهم بلحمنا ، معنوياتنا عالية ، والاشبال سوف يعيشون ويروونها لاحفادهم » .

طلائع القوات المشتركة تصل مشارف تل الزعتر وقوات الغزو تحاول عرقلة تقدمها

صباح الجمعة ، بدأت طلائع القوات المشتركة تصل منطقة تل الزعتر وتشتبك مع القوى الفاشية التي كانت تشدد الحصار على المخيم بهدف اسقاطه ، وقد نشبت معارك شديدة وسارعت القوى الانعزالية محاولة اقامة خطوط دفاع امام القوات المشتركة .

في الوقت نفسه ، تصفت قوات الغزو السورية احدى مجموعات التقدم في محاولة لايقاف زحفها باتجاه تل الزعتر ولانقاذ القوى الفاشية المهددة بالوقوع بين نيران تل الزعتر الصامد ونيران القوات المشتركة ، الا ان اخر التقارير افادت بأن محاولات القوات السورية هذه فشلت وان الزحف مستمر .